الفصل السابع :

حتمية الشهادة

ختمية الشهادة

ليس من نهاية تتوافق وعظمة تلك الحياة ، وجليل صاحبها سوى الشهادة فهى حتم محتوم ، ولقد استهدفتْ الشهادةُ عمرَ قبل أن يستهدفها ، وقد سعتْ إليه قبل أن يسعى إليها .

والشهادة طريق له بداية وله نهاية ، قد تدفع ظروف خارجة عن إرادة الإنسان إلى هذا الطريق ليسير فيه ويصل إلى نهايته ، وقد يكون على علم بتلك النهاية ، وقد يجهل تلك النهاية .

وأعظم الشهداء – والشهادة درجات – من يختار السير فى هذا الطريق بملء إرادته يدفعه إلى ذلك شرفُ طبعه ، ونبلُ خلقه ، الذى لا يقبل المساومة على قيم ومبادئ أزلية ولا يقبل مهادنة الباطل أو خذلان الحق .

والشهيدُ يفوزُ فوزًا عظيمًا ، ويحقق مكسبًا لا يطاوله مكسب فى مجال الأخلاق الرفيعة ، وفى سجل التاريخ الإنسانى ، والذى يفخر ويتيه بنو الإنسان به

والشهادة دليل وبرهان وإيمان :

- دليل على أن للإنسان الفرد قيمة سامية فى هذا الكون ، فلا نظن أن هناك كائنا آخر فى الكون يقدم على ما يقدم عليه الإنسان من التضحية مختارًا بحياته عن اقتناع ورضى .
- برهان على أن البشر درجات وأنواع ، وكما ينحط الإنسان إلى أدنى الدرجات ويتجاوز فى الانحطاط كل تصور وجميع الحدود ، يستطيع أن يسمو ويرتقى إلى أعلى الدرجات ، ضاربًا أسمى آيات الإيثار والتضحية

- إيمان بأن الله موجود ، وأن هناك حياة أخرى ، فلولا هذان الأمران ما رخصت الحياة فى عين الشهيد ، وما زهد فى الدنيا . والإنسان لا يصل إلى درجة عين اليقين إلا إذا كان ما يستمد منه هذا الإيمان الوثيق على درجة عليا من الحياة وعلى أعلى درجة من الوجود .

حكمة الشهادة :

الحياة الدنيا لها بريقها ولها إغراءاتها ، وهى حافلة بالشهوات والرغبات وأغلب رغباتها وشهواتها دنيئة ، وليس هذا حكما خلقيا بقدر ما هو حكم واقعى ووصفى ، لأن النبع دنىء، فكل ما يخرج منه مكتسب منه

﴿ ...وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (١)

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ... ﴾ (٢)

والنفس الإنسانية مركوز فى طبيعتها ما يزيد هذا البريق سطوعًا ويؤجج من سعار تلك الإغراءات ، ويشعل أوار تلك الشهوات ، لأن بها رغبات دنيئة مثل الطمع والأثرة والحقد والغيرة والاستبداد والبطش ، فهناك تشابه بين هذا الجانب من النفس الإنسانية وبين الحياة الدنيا ، وتجد النفس مبتغاها ومرامها فيها ، لذلك ينشأ عشق النفس للحياة الدنيا ، وينتج عن العشق نوع من التوحد بين النفس والحياة ، أو تصبح الحياة الدنيا هى دين النفس وعقيدتها تستمد قيمها ومبادئها منها ، وتعلو بالدنيا ، وتعتبرها هى المبدأ وهى المنتهى ، فلا غاية من وراء تلك الدنيا إلا إرضاء رغبات الجسد ، ورى ظمأ النفس الذى لا ينتهى ، ومن كان هذا مطمحه فهو لا يعبأ أى السبل يسلك ، ولا بأى الوسائل يستعين

١- سورة آل عمران : من الآية ١٨٥ .
٢- سورة الأنعـــام : من الآية ٣٢ .

مضحيا بكل شىء ، فما القتل والسرقة والكذب والتزوير والخداع إلا وسائل مباحة تكتسب الشرعية فى عرفه كلما أصابت نجحًا ، وحققت الغاية والهدف !!

ويبدأ ضعاف النفوس ، ومرضى القلوب ينجذبون إلى تلك الوسائل والسبل ويتجمعون فيما بينهم ، تجمعهم وحدة الهدف والوسيلة ، وتزداد سطوة وجبروت تلك الجماعة بمرور الزمن ، ويتسع نطاقها ويمتد وجودها ، وتبدأ بتأصيل هذا الوجود، لأنها تعلم أن كل ما تبنيه على شفا جرف هار ، فتهب لتشرع لنفسها فلسفة تبريرية ، تبرر لها كل أفعالها ، وتسوغ لها كل أفكارها ، وتلك الفلسفة تعتمد فى أساسها على الخداع والتزوير والتلفيق والمغالطة وتتملق رغبات النفس ، وترضى غرائزها الوقتية ، وتعضد اتجاهاتها المادية ، ويصبح العالم الذى تعيش فيه وتدعو الآخرين فى الانضواء تحت لوائه ، كافرًا بكل شىء إلا بالمادة ولا يستجيب ولا يلبى إلا نداء اللحم والدم .

وتلك الفئة الضالة لا يقتصر خطرها على ذاتها فحسب ، وإنما هى حرب على من يعارضها أو يخالفها لأنها تريد أن تصبغ العالم والكون بصبغتها ، فلا صوت إلا صوتها ، ولا رأى إلا رأيها وتمتلىء أوداجها بالغرور والكبر ، وتتسم تصرفاتها بالصلف والنزق .

ومن أجل ذلك تتراكم غيوم كثيفة من الضلال والباطل فى سماء العالم ويشيع الظلم والاستبداد والقهر ، ويتحول العالم إلى غابة لا يلمع فى جنباتها إلا الظفر والناب ، ولا يسمع فى أجوائها إلا صرخات القتلى وأنين الضحايا ، ولا يرى فى أرضها سوى الأشلاء والدماء ، ولا يشق صمتها غير عواء الطغاة والجبابرة وينتشر بين الناس الشح والحرص والأثرة والتكالب والتباغض والخداع والمكر .. هنا لا وجود للخير أو العدل أو الحق .. إن هى إلا أسماء تلهج بها ألسنة المقهورين والمعذبين والبؤساء ، وقد تتعرض للقطع والبتر نتيجة ذلك .

هنا تتدخل السماء ، وترسل الأنبياء والرسل لإرجاع العالم إلى صوابه ورد البشر إلى رشدهم ، وتبصير الناس بالحقيقة الضائعة ، وإرشادهم إلى مكان الخير والحق فى النفس الإنسانية ، ومواطن العدل والأمن فى الكون ، وكشف ما ران على القلوب من طبقات الظلام والضلال والغفلة .

ولكن شياطين الباطل ، وأبالسة الضلال لن يقفوا مكتوفى الأيدى ، فعلى الفور يتجمعون ليطفئوا هذا النور ، ويكتموا أنفاس الحق ، ويحطموا هيكل العدل إنها حرب مستعرة ، ولابد أن يكون فى الجبهة المقابلة جند للحق ومحاربون لنصرة العدل ، ومدافعون عن الخير .. وهم الشهداء .

نذروا أنفسهم قربانا لتحقيق هدف سامٍ ، وهم يعلمون أن تحقيق هذا الهدف فى حاجة إلى بحار وأنهار من الدماء الطاهرة الزكية ، وما هم إلا قطرة أو قطرات فقد يتحقق هذا الهدف وهم على قيد الحياة وقد لا يتحقق فى حياتهم ، حتى هذا لا يفكرون فيه ، لقد وضح السبيل أمامهم ، سبيل الله ، وهم سائرون فيه وليس لهم من مقصد سواه .

والمقصد والغاية والهدف تحدد نوعية الحياة التى يحياها الإنسان ، وكذلك تفكيره ومشاعره ، فهم بمثابة البوصلة التى تشير إلى النهج والطريق الذى يجب عليه أن يسلكه .

وقد يحدد نوعية الحياة التى يحياها الإنسان المقصد والهدف والغاية (وعمر) من هذا الصنف ... نوعية وطريقة الحياة التى اختارها وارتضاها هى التى حددت الهدف والمقصد والغاية ... هو لم يكن يفكر فى الشهادة ولم يكن يتوقعها وإن كان يسألها ويتمناها

"عن زيد بن أسلم عن أمه عن حفصة قالت : سمعتُ عمر يقول : اللهم قتلاً فى سبيلك ، ووفاة فى بلد نبيك . قلت وأنى يكون هذا ! قال يأتى الله به إذا يشاء اللهم ارزقنى شهادة فى سبيلك واجعل موتى فى بلد رسولك"

أمنية تمناها عمر، دفعه إليها قوة إيمانه، وعلو همته، ومضاء عزيمته، وإن كان لا يتوقعها أو تدور بخلده "عن أبى صالح قال: قال كعب لعمر: أجدك فى التوراة كذا وكذا وأجدك تقتل شهيدًا. فقال عمر، وأنى لى الشهادة وأنا فى جزيرة العرب"

وإذا كان الإنسان لا يكتسب صفة الشهادة إلا بعد مقتله، وهى مدة وجيزة تفصل بين كون الإنسان ليس شهيدًا وبين كونه شهيدا إلا أن عمر منذ اللحظة الأولى لإسلامه اختار وبملء إرادته أن يقف فى صفوف الشهداء، ويسلك سلوكهم ويفعل أفعالهم ويفكر تفكيرهم.

أو لنقل إن عمر قد اختط لنفسه طريقًا أو سبيلا جديدًا للشهادة – وكل ما يتعلق بعمر جديد لم يسبقه أحد إليه – لم ينتظر الباطل حتى يقتحم عليه عالمه أو يتريث حتى يحدد مكانًا أو ميدانًا لمحاربة الباطل، أو يتمهل حتى يحين الوقت المناسب للمجابهة أو يتحين الفرصة كى يأخذ خصمه على حين غرة كل هذا لم يفكر فيه عمر، أو يحسب له حسابًا، وإذا كانت الشهادة بمثابة خضم واسع متلاطم الأمواج حافل بالأنواء والعواصف فإن عمر ألقى بنفسه فى هذا الخضم بدون إعداد العدة أو حساب للتيارات أو الأنواء، فهو لا يخشى البحر أو الخضم لأنه أيضًا بحر وخضم، لا يخشى أن يحتويه البحر، لأن لديه من القدرة والقوة والشجاعة والجرأة أن يحتوى البحر بكل ما يشتمل عليه من أخطار وأهوال وخطوب.

أراد أن يعلم العالم كله إسلامه، وانتقاله من معسكر الكفر إلى معسكر الإيمان، لأنه أدرك أن الحرب بين الاثنين أدخل فى الجهاد النفسى والعصبى منها فى جهاد السلاح والقوة، فهذا الإعلام المدوى سيزلزل المعسكر الأول، وكانت الأمور فى حاجة إلى هذا

الزلزال لتضعضع من تماسكه وصلابته ، وتقوى المعسكر الثانى وهو أشد ما يكون آنذاك حاجة إلى من يلملم شتاته ويقوى بنيانه ولو على صعيد الدعاية والإعلام .

قنبلة فجرها عمر ، وهو لا يدرى إلى أى مدى ستصل شظاياها وقد ترتد عليه لتقتله فلتقتله فهو لا يعبأ بذلك . بالأمس كان أشد ما يكون إيذاءً للمسلمين تحديا ومواجهة ، بل وصل الأمر به – كما يروى – أنه قصد صاحب الدعوة الجديدة ليقتله ليريح العرب من الدعوة الجديدة ومن صاحبها ، وكان من الممكن أن يقتل وهو منفرد ، هو لا يعبأ بذلك أمامه هدف وها هو يسعى لتنفيذه ، ولا عليه إن نفذه أم لم ينفذه ، فلا حائل يحول بينه وبين التنفيذ سوى الموت ... فليمت

واليوم أشد ما يكون إيمانًا وتصديقًا للدعوة ، وحبًّا لصاحبها فليبدأ بمواجهة هذا الحشد وهذا الجبروت والطغيان منفردًا وقد يقتل ، هو لا يعبأ بذلك ، أمامه هدف ، وها هو يسعى لتنفيذه .

سأل أى أهل مكة أنقل للحديث ؟ قيل له : جميل بن معمر الجمحى فقصده وأخبره أنه قد أسلم ، وعلى ما يبدو أن الرجل كان بمثابة وكالة أنباء متنقلة ، فما هى إلا لحظات حتى عرفت جميع أندية قريش بأمر إسلام عمر ، ولم يتوار أو يخف ، (جميل) يقول : يا معشر قريش إن عمر بن الخطاب قد صبأ ، وعمر يقول من خلفه : كذب ولكنى أسلمت ويبدأ الصراع بين رجل ومجموعة من الرجال الأشداء ، يجالدهم ويجلدونه، احتمال الشهادة هنا وارد .

ثم بعد ذلك يسأل رسول الله ﷺ سؤاله العمرى ، حينما رأى المسلمين لا يجهرون بصلاتهم ويعلنونها متحدين ومجابهين "ألسنا على الحق إن متنا أو حيينا ؟"

وخرج عمر ومعه سيدنا (حمزة) مع رسول الله ﷺ ونفر من الصحابة قاصدين الكعبة على ملأ من الكفار والمشركين . احتمال الشهادة هنا وارد

وحينما تولى الخلافة ، كل يوم يأتى وتأتى معه احتمالات الشهادة ، وهو سائر فى الأسواق والطرق متفقدًا الرعية وأمور حياتهم اليومية ليلا ونهارًا بدون حراسة أو حماية وجيوشه فى الغرب والشرق تحطم وتكسر جيوش الأعداء وأسرى تلك الأمم يفدون على جزيرة العرب وإلى مكة والمدينة يملأ قلوبهم الغيظ والغضب والحقد .

ومنهجه فى الحكم ، وشدته وحسمه وحزمه ، وعدم مراعاة منزلة لأى شخصية من الشخصيات فى الدولة إذا تعارضت مع المصلحة العامة أو الحق ... والتى أغضبت الكثيرين منه ، لأنها حالت بينهم وبين ما يريدونه ، وكان عمر يعلم مبلغ ضيق البعض من هذا النهج فى الحكم إلى الدرجة التى ظن أن قتله قد يكون صادف هوى البعض "فعندما طعن اجتمع إليه البدريون والمهاجرون والأنصار فقال لابن عباس : اخرج عليهم فسلهم عن ملأ منكم ومشورة كان هذا الذى أصابنى ؟ فخرج ابن عباس فسألهم ، فقال القوم : لا والله ولوددنا أن الله زاد فى عمرك من أعمارنا" .

وإذا كان الشهيد – الشهيد بالقوة – يبحث عن ميادين القتال ، ويسعى إليها أينما كانت ، فإن عمر كان بمثابة ميدان معركة متحرك ، حياته كلها منذ أن أسلم إلى أن قتل صراع وجهاد مع الأحياء والحياة ، حتى مع نفسه ، وربما تكون أشد المعارك ضراوة هى التى كانت مع نفسه ، كما ذكرنا فى بعض الفصول من قبل

"فهو مستشهد لا محالة ، ولو مات على سريره ، فإن الإنسان قد يعيش عيشة الشهداء ولا يلزم بعد ذلك أن يموت ميتة الشهداء فى كل قسمة كتبت له ، وكل حركة سعى إليها أو سعت إليه" (١)

أمران لا ثالث لهما . بل هو أمر واحد أمام عمر (الشهادة)

كثيرون يعرفون أنهم على الحق ، ولكن تلك المعرفة لا تدفعهم إلى الشهادة ولا لوم عليهم فى ذلك .

كثيرون يعرفون أنهم على الحق ، ولكن تلك المعرفة لا تجعل الموت والحياة عندهم سواء ، ولا لوم عليهم فى ذلك .

كثيرون يعرفون أنهم على الحق ، فيتوحدون به ويسعون سعيا إلى الشهادة وتصبح مبلغ آمالهم ، ونهاية مرامهم وهؤلاء هم الشهداء حقا .

وقد كان عمر متوحدًا مع الحق ، سائرًا مع الحق يوجه كيفما يشاء ، وهل هناك أشرف وأسمى من الشهادة لتكون وجهة الحق ؟

"عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه"

"عن ابن عباس عن أخيه الفضل . قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : عمر بن الخطاب معى حيث أحب وأنا معه حيث يحب ، الحق بعدى مع عمر بن الخطاب حيث كان"

"عن على بن أبى طالب ﷺ ، قال : قال : رسول الله ﷺ : اتقوا غضب عمر فإن الله يغضب إذا غضب عمر"

الحق على لسانه وقلبه .

١- عبقرية الإمام – عباس العقاد : (٢٠٥) .

الحق معه حيث كان .

الله يغضب إذا غضب عمر.

هل هناك توحد مع الحق أكثر من ذلك ، والشاهد على ذلك رسول الله ﷺ وقد أدرك رسول الله ﷺ أن من تكون تلك سيرته وهذا نهجه ، ليس له من خاتمة يختتم بها حياته سوى الشهادة .

فعمر شديد فى أمر الله "أشد أمتى فى أمر الله عمر" وعمر متوحد مع الحق

وعمر لا يقبل المهادنة أو المراوغة أو المساومة أو أنصاف الحلول .

وهناك كارهون للحق ، مبغضون للشدة فى أمر الله ، ناقمون على الصراحة زاهدون فى الاستقامة ، يبغونها عوجا ، يريدونها باطلا ، وإن هؤلاء كثر :

﴿...وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ (١)

﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ (٢)

وأن هؤلاء على كثرتهم وعلى طغيانهم وفسادهم ، لن يستطيعوا أن يقضوا على الحق لأن الحق لا يقضى عليه ، وإنما هو الذى يقضى على الباطل :

﴿ ...وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ (٣)

﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٤)

﴿...وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٥)

١- سورة المؤمنون : من الآية ٧٠ .
٢- سورة الزخرف : من الآية ٧٨ .
٣- سورة الأنفال : من الآية ٧ .
٤- سورة الأنفال : من الآية ٨ .
٥- سورة الشورى : من الآية ٢٤ .

والحق أساس من الأسس التى بنى عليها الكون ، قبل أن يكون أمنية تختلج بها الصدور ، أو غاية تطمح إليها النفوس

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ ... ﴾ (١)

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢)

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ ... ﴾ (٣)

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٤)

إذن لا أحد يستطيع القضاء على الحق ، إلا إذا كان فى استطاعته القضاء على السموات والأرض ، أو تبديلهم خلقا آخر.

وإذا كان القضاء على الحق محالا ، فليس أقل من أن يقضى على من يمثل الحق على من يجسد الحق ، على من يأمر بالحق ويقيمه ، على من لا يتنفس النفس إلا ليدافع عن الحق أينما وجده ويحارب الباطل أينما كان ، بل كان يتتبع الباطل ويبحث عنه فى مظانه ليواجهه ، ويقاتله حتى إن الشيطان ليفرق من عمر.

الحق والشهادة صنوان

ولم لا نقول ان الشهادة حق والحق شهادة؟!

١- سورة الأنعـــام : من الآية ٧٣ .
٢- سورة العنكبوت : الآيـــة ٤٤ .
٣- سورة الحجـــر : من الآية ٨٥ .
٤- سورة النحـــل : الآيـــة ٣ .

والشهادة متغلغلة فى حياة الناس اليومية ، قريبة من أطراف أصابعهم إن شاءوا مدوا أيديهم لينالوا منها كل حسب مقدرته "عن أبى وائل أن عمر قال : ما يمنعكم إذا رأيتم السفيه يخرق أعراض الناس أن تعربوا عليه ؟

قالوا : نخاف لسانه .

قال : "ذلك أدنى أن لا تكونوا شهداء"

شجاعة وتوحد مع الحق .

قوة فى المواجهة .

صدق فى النية .

شرف ونبل فى الطبع .

الخاتمة : شهادة .

وكأنى برسول الله ﷺ وقد سبرغور شخصية عمر – أراد أن يلمح لصاحبه بتلك الخاتمة والتى أدركها بحسه النبوى الصادق خاتمة شريفة ، لحياة شريفة لشخصية شريفة ، وقفت الإنسانية وتقف وستقف أمام هذا الإنسان خافضة الجبين ، خاشعة الجنان ، كيف لإنسان يرتقى كل يوم فى سجل حياته فى مدارج الكمال الإنسانى ويتجاوز تلك الغاية ، واضعا للإنسانية غايات وأهدافا تعجز الإنسانية – فى وقتها الحاضر عن الوصول إليها ، أو حتى الاقترُاب منها ، ويكون آخر يوم له فى سجل الأحياء بداية أعظم وأحق فى سجل الخالدين إلى أبد الدهر

"عن الزهرى عن سالم عن أبيه . قال : رأى النبى ﷺ على عمر ثوبا أبيض فقال أجديد ثوبك هذا أم غسيل قال : بل غسيل . قال : البس جديدًا وعش حميدًا ومت شهيدًا يعطك الله قرة عين فى الدنيا والآخرة" .